مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية ٢٠٢٥ المجلد ١٥/ العدد ٥

شعر الرثاء الحسيني ما بين المشرق والمغرب في القرنَين الخامس والسادس الهجريَّين

حسين مرعشي
أستاذ في قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة شيراز

براء باسم اسود الغريباوي
طالبة دكتوراه في اللغة العربيّة
وآدابها في جامعة شيراز

البريد الإلكتروني Email : baraabasim1994@gmail.com

الكلمات المفتاحية: الرثاء، الحسيني، المشرق، المغرب، القرن الخامس، القرن السادس.

كيفية اقتباس البحث

مرعشي ، حسين، براء باسم اسود الغريباوي، شعر الرثاء الحسيني ما بين المشرق والمغرب في القرنَين الخامس والسادس الهجريَّين، مجلة مركز بابل للدراسات الانسانية، أيلول ٢٠٢٥،المجلد:١٥ ،العدد:٥ .

هذا البحث من نوع الوصول المفتوح مرخص بموجب رخصة المشاع الإبداعي لحقوق التأليف والنشر (Creative Commons Attribution) تتيح فقط للآخرين تحميل البحث ومشاركته مع الآخرين بشرط نَسب العمل الأصلي للمؤلف، ودون القيام بأي تعديل أو استخدامه لأغراض تجارية.

مفهرسة في Indexed
IASJ

مسجلة في Registered
ROAD

Husseini Elegy Poetry between the East and the West in the Fifth and Sixth Centuries AH

Husayn Mireishi
Professor in the Department of Arabic Language and Literature, Shiraz University

Bara' Biasm Aswd Algharibawi
PhD student in Arabic Language and Literature at Shiraz University

Keywords : Elegy, Al-Husayni, East, Maghreb, Fifth century, Sixth century.

How To Cite This Article
Mireishi, Husayn, Bara' Biasm Aswd Algharibawi, Husseini Elegy Poetry between the East and the West in the Fifth and Sixth Centuries AH, Journal Of Babylon Center For Humanities Studies, September 2025,Volume:15,Issue 5.

This is an open access article under the CC BY-NC-ND license (http://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International License.

Abstract:

The phenomenon of Shiism is one of the factors that clearly influenced Arabic poetry, especially in the East. This phenomenon was able to reflect the most important ideologies of the Shiite sect, and then began to gradually infiltrate Andalusia, leaving a noticeable impact on Andalusian poetry that reflected various aspects of social, cultural and political life in that period. Andalusian poets dealt with new ideas coming from the East, including Shiite thought, which began to appear clearly in Andalusian literary life. This research seeks to trace Shiite poetry in Andalusia, focusing on the elegies of Andalusian poets for Imam Hussein (peace be upon him). These elegies were based on deep psychological and intellectual factors, as the poets depicted the tragedy of Karbala in a vivid way, revealing the depth of the tragedy and its impact on the souls of believers. These poems reflected the poets' sincere emotion towards what

happened to Hussein and the family of the Prophet, as the tendency to sadness was clearly evident in their expressions of pain and grief. The poems were filled with intense emotion and strong feelings, reflecting the majesty of this event and its profound impact on the soul. The research also addressed the means that contributed to shaping the poetic image, indicating a clear connection between ideas and meanings, as sadness and pain dominate all the poems. Consequently, the meanings and ideas of these elegies were consistent with the psychological atmosphere experienced by the poets, which led to the synergy of form and content in expressing the poet's feelings towards Imam Hussein (peace be upon him).

الملخص:

تُعَدُّ ظاهرة التشيُّع من العوامل المؤثرة بشكل واضح في الشعر العربي، لا سيما في المشرق. فقد استطاعت هذه الظاهرة أن تعكس أهم إيديولوجيات المذهب الشيعي، ثم بدأت تتسلل تدريجيًا إلى الأندلس، إذ تركت أثرًا ملحوظًا في الشعر الأندلسي الذي عكس مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية في تلك الفترة. تعامل الشعراء الأندلسيون مع الأفكار الجديدة القادمة من المشرق، بما في ذلك الفكر الشيعي، الذي بدأ يظهر بوضوح في الحياة الأدبية الأندلسية. يسعى هذا البحث إلى تتبع أشعار التشيع في الأندلس، مع التركيز على مراثي شعراء الأندلس للإمام الحسين (عليه السلام). لقد استندت هذه المراثي إلى عوامل نفسية وفكرية عميقة، إذ صور الشعراء فاجعة كربلاء بشكل حي، مما يكشف عن عمق المأساة وتأثيرها على النفوس المؤمنة. عكست هذه الأشعار انفعال الشعراء الصادق تجاه ما حدث للحسين وآل بيت النبوة، إذ تجلت نزعة الحزن بوضوح في تعبيراتهم عن الألم والأسى. كانت القصائد مليئة بحرارة الانفعال وقوة الشعور، مما يعكس جلال هذا الحدث وأثره العميق على النفس. كما تناول البحث الوسائل التي ساهمت في تشكيل الصورة الشعرية، مشيرًا إلى وجود ترابط واضح بين الأفكار والمعاني، إذ يهيمن الحزن والألم على جميع القصائد. وبالتالي، توافقت معاني وأفكار هذه المراثي مع الجو النفسي الذي عاشه الشعراء، مما أدى إلى تآزر الشكل والمضمون في التعبير عن إحساس الشاعر تجاه الإمام الحسين(ع).

المقدمة:

يعد شعر الرثاء لآل البيت (عليهم السلام) من أبرز أشكال التعبير الأدبي التي تعكس مشاعر الفقد والحنين في الثقافة الإسلامية في القرنين الخامس والسادس الهجريين، برز هذا النوع من الشعر كوسيلة للتعبير عن الحزن العميق الذي شعر به المسلمون تجاه مآسي أهل البيت

(عليهم السلام) مما ساهم في تعزيز الروابط الروحية والثقافية بين المجتمعات الإسلامية في المشرق والمغرب، وتتعدد عناصر الأدب في هذا السياق، إذ تلعب العاطفة دورًا مركزيًا في نقل مشاعر الشاعر وتجربته الشخصية، ويُستخدم الخيال لتشكيل صور شعرية غنية، تعكس التجارب الإنسانية بطرق مبتكرة، بينما تعزز الموسيقى والإيقاع من جمال النصوص وتأثيرها العاطفي. كما أن الأسلوب الشعري المتنوع يعكس تفاعل الشعراء مع سياقاتهم الثقافية والتاريخية.

تتميز هذه القصائد بقدرتها على تجاوز حدود الحزن، لتصبح رموزًا للولاء والانتماء، مما يعكس عمق العلاقة بين المسلمين وآل البيت. من خلال دراسة هذا الشعر، يمكننا فهم كيف أسهمت هذه النصوص في تشكيل الهوية الثقافية والدينية للأمة الإسلامية، وكيف استمرت تأثيراتها عبر العصور. في هذا البحث، سنستعرض الجوانب المختلفة لشعر الرثاء، مع التركيز على الروابط الثقافية بين المشرق والمغرب، وتأثيرها المستمر في الوجدان الجماعي.

مفهوم الرثاء: لغةً واصطلاحاً:

فنّ الرّثاء هو من أكثر فنون الشّعر تعبيراً عن صدق العواطف، لا سيّما إذا كان صادراً عن شاعرٍ قد أصاب الموت قريباً له، فذاق مرارة الفقد، وعاش مشقّة الحرمان، وذهب مذهب النّائحين الباكين من خلال كلامٍ مسكون بالآلام والأحزان، مضبوط بالقوافي والأوزان، وقبل الدّخول في الحديث عن الرّثاء بوصفه غرضاً شعريّاً رئيساً لا بدّ من تعريف هذا اللّفظ لغةً واصطلاحاً:

- الرّثاء لغةً:

والرّثاء هو بكاء الميّت، ومدحه، وقد جاء في كتاب العين أقدم معجم وُضِعَ في العربيّة: "رَثَى فلانٌ فلاناً، يرثِيه رَثْيَاً ومَرثِية؛ أي يبكيه ويمدحه، ولا يرثي فلانٌ لفلانٍ؛ أي لا يتوجّع إذا وقع في مكروه" (الفراهيدي، ١٤١٤هـ، مادة: رثى). وورد في "كتاب مقاييس اللّغة" أنّ الجذر "الرّاء والثّاء والحرف المعتلّ" جذر أصيل في العربية يدلّ على الرّقّة والإشفاق، يُقال: رَثَيْتُ لفلان: رققت، ومن الباب قولهم: رثى الميّت بشعر (ابن فارس القزويني، ١٩٧٩م، مادة رثى، ٤٨٨/٢). وتوسّع معجم "لسان العرب" في ذكر التّصريفات التي تتّصل بالمصدر (الرّثاء)، ومما ورد فيه: "رثأتُ الرّجلَ رثأً: مدحته بعد موته، لغةً في رَثَيْتُهُ، ورَثَأَتِ المرأةُ زوجها كذلك، وهي المُرثِئَةُ.

- الرّثاء اصطلاحاً:

يُعرَّف الرّثاء بأنّه "بكاء يتعمّق في القدم منذ وجد الإنسان، ووجد أمامه هذا المصير المحزن، مصير الموت والفناء الذي لا بدّ أن يصير إليه، فيصبح أثراً بعد عين ... فيئنُّ الشّاعر ويتفجّع؛ إذ يشعر بلطمة مُروعة تصوّب إلى قلبه، فقد أصابه القدر في ابنه أو أبيه، وهو يترنّح من هول الإصابة ترنّح الذّبيح، فيبكي بالدّموع الغِزار، وينظم الأشعار، يبثّ فيها لوعة قلبه، وحرقته، وقد

ينظر، فيرى الموت مُطلّاً نَصْبَ عينيه، وهو ينحدر راغماً إلى حفرته، ولا ناصر له ولا معين، ويصيح، ولا ينفعه صياحه، ففم الهاوية يقترب منه، ويوشك أن يلتقمه، فيبكيه، ويلحّن بكاءه على قيثارة شعره تلحيناً مُشجياً، كلّه آلام وحسرات" (ضيف، ١٩٩٥م، ص٥).

إنّ الرّثاءَ غرضٌ شعريٌّ تبعثه فاجعة الموت بعزيز رحل أو عظيم افتُقِدَ، فقد عرفه العرب منذ عصر ما قبل الإسلام حتّى هذا العصر؛ إذ كان النّساء والرّجال جميعاً يندبون، وكذلك يقفون على قبور موتاهم مؤبنين، نادبين، حزانى، ومن هنا فإنّ الرّثاء فنٌّ يحمل قيمة عالية في الشّعر العربي، وذلك لما يشعّ منه من صدق العاطفة، وعمق الإحساس بالآخر الذي رحل عن الدّنيا، وابتعد، فالرّثاء هو تصوّر حقيقي يربط بين ثنائيّة الموت والحياة، والانتقال من عمق الفاجعة والأسى إلى الصّبر، ومواصلة الحياة، ولعلّ كل شاعر فقد عزيزاً على قلبه رثاه بإحدى قصائده، يقول الجاحظ: إنّ "الرّثاء يدلّ على وفاء الشّاعر لمن رحل عن الدّنيا، فهو بهذا يعلّم مكارم الأخلاق إضافة إلى ما يذكر من محاسن الرّاحل، وبهذا يكون أبعد أثراً بسبب صدق العاطفة" (السعدي، ، ٢٠٠٦م، ص٢٣٠).

لقد ارتبط الرثّاء بالبكاء والندب والنّواح والعويل والنّعي، وبذلك تنتمي هذه الألفاظ إلى حقل معجمي واحد.

- شعر الرثاء الحسيني (عليه السلام) ما بين المشرق والمغرب

كان العالم الإسلامي في النّصف الأخير من القرن الرّابع الهجري (العاشر الميلادي) مسرحاً لصراعات حادة، تجري أحيانا ظاهرة وأحيانا خفية، وقد استمرّت الفوضى الدّينيّة والسّياسيّة في القرن الخامس الهجري، وتمثّلت في وجود خلافات إسلاميّة ثلاث تقتسم العالم الإسلامي في المشرق، الفاطميّون في مصر، والبويهيّون في بغداد، وبعد البويهيين السّلاجقة، وهذه الخلافات الثّلاث تنازعت الزعامة على هذا المشرق البائس المحكوم بالحروب والانقسامات التي أدّت إلى تكريس حركات الانشقاق الرّوحي والسّياسي عن هذه الخلافات، وقد أسهم كلّ ذلك في فقدان المشرق لمكانته الروحيّة والسّياسيّة، وقبل الخوض في شعر الرثاء الحسيني في القرنين الخامس والسّادس الهجريين، من الأمثل أن يتمّ الإضاءة على الواقع السّياسي والاجتماعي والثقافي الذي كان يعيشه المشرق آنذاك، وذلك مع شيء من الإيجاز، بزغ الشّعر الموالي لآل البيت (عليهم السّلام) حباً ومدحاً ورثاءً في شمال إفريقيا في القرن الخامس الهجري بعد سقوط الدولة الأموية الثانية (ت ٤٢٢ هـ)، وقوي هذا الشّعر في القرن السادس، ويرجع الشّعر الرّثائي من حيث التوثيق إلى القرن الرّابع منطلقاً من شمال إفريقيا على عهد الحكومات الموالية لآل البيت (عليهم السّلام) إلّا أن بعض الحكومات في شمال أفريقيا كان لها امتدادات على الضفة الثانية من البحر

الأبيض، وهو ما ساعد في انتقال الشعر الولائي بعامّة، والرّثائي بخاصّة من القارة الأفريقية الى القارة الأوروبية حيث الأندلس، ومن أعلام هذا الشّعر الشاعر أبو طالب عبد الجبار (ت بعد عام ٥٢٠هـ) الذي عُرِفَ بالمتنبي الأندلسي، والشاعر ابن عبدون عبد المجيد بن عبد الله الأندلسي (ت ٥٢٩هـ)، والشاعر ابن أبي الخصال الشقوري محمد بن مسعود الغافقي (ت ٥٤٠هـ)، وابن البراق محمد بن علي الوادي آشي (ت ٥٩٦ هـ) والتجيبي صفوان بن إدريس المرسي (ت ٥٩٨ هـ). وقد قوي الشّعر الولائي في تلك البقاع؛ نظراً لروح التّحرر والانعتاق من الظّلم والهوان التي توفّرت عليها مظلوميّة آل البيت (عليهم السّلام)، خاصّةً المأساة الحسينيّة التي أثّرت في نفس كل من وصلت إلى مسامعه الحكاية الفاجعة.

إن استشهاد الحسين، حفيد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، في تلك الصورة المؤلمة والوحشية في كربلاء، يُعد مصابًا فادحًا ومصابًا كبيرًا، وإنه شعور بالغصة في القلب لا يُحتمل، وحرقة في الجوانح لا تندمل، تظل مستقرة في قلب كل من يعشق رسول الله وآل بيته الكرام (عليهم السلام)، ولا يظهر هذا الألم إلا من خلال الصبر والاحتساب، والرضا بقضاء الله تعالى وقدره.

وقد صور الشعراء هذه الفاجعة تصويرًا حيًا يعكس تأثرهم العميق بها وتأثيرها في نفوسهم، وأكدوا على خطورة هذه الحادثة وكشفوا عن وقعها الشديد على الأرواح، ومن بين هذه النماذج، نجد قول ابن أبي الخصال. إذ يقول:

إنّ فـــي (كـــربلاءَ) كـــرباً ســـقيماً ... فـــــتنَ المـــــؤمنينَ والمؤمنـــــاتِ
فـــاتني نصـــركمْ بنصـــلي فنصـــري ... بفـــــــؤادٍ مجـــــدَّدِ الزفـــــراتِ
وقـــــوافٍ موســـــومةٍ بـــــدموعٍ ... قـــــدحتْ فـــــي توقّـــــدِ الجمـــــراتِ

إن استشهاد الحسين بهذه الصورة المؤلمة يمثل كربًا عظيمًا، قد صدع فؤاد الشاعر وأحرق كبدَه، وأضعف قواه، وأثر في قلوب المؤمنين، فإذا كان الشاعر قد فاته شرف نصرة الحسين وآله بالسلاح، فقد نصره بقوافٍ تفيض أسىً ولوعًا، وفؤادٍ ملتهب، وكبدٍ متقد، ودموعٍ سائبة، لا تتوقف حزنًا وتألمًا على مقتل سبط رسول الله وآل بيته الكرام، وإذا كانت الألفاظ تحمل إيحاءات ودلالات وظلالًا ذات تأثير، وتتمتع بطاقات تعبيرية ورحابة معنوية غنية بالدلالة، فإن التأكيد باستخدام (إن) المكسورة يكشف عن انكسار الشاعر، ويوحي بنفسٍ محطمة لما أصاب الحسين، كما أن الاستفهام بـ (ما) عن استمرارية الدموع بعد مقتل الحسين، فالتعبيرات تفيض بالعبرات أسىً وحزنًا وألمًا.

إن استشهاد الإمام الحسين(ع) يمثل حدثًا فريدًا لا يمكن مقارنته بأية مصيبة أخرى، فهو الكارثة التي تضاءلت أمام شدتها جميع الكوارث، وقد قدم الشعراء تصويرًا حيًا لهذه الفاجعة وأثرها على

الأمة، مما يكشف عن عمق المأساة ووقعها على النفوس المؤمنة، هذا التصوير يعكس انفعالات الشعراء الصادقة تجاه ما حل بالحسين وآل بيت النبوة(عليهم السلام) في كربلاء، إذ واجهوا حالة مأساوية وموقفًا يترك أثرًا عميقًا في النفوس، ويهز المشاعر ويثير الأحاسيس، ويزرع الأسى والجزع في قلوب المؤمنين.

إذ قال القحطاني في رثاء الإمام الحسين (ع): (القحطاني، ١٩٨٩: ص٣٣١)

ويــــلٌ لـــــمَنْ قَتَـــلَ الحُســـينَ فإنَّـــهُ قَـــدْ بَـــاءَ مِـــنْ مَـــولاهُ بالخُسْـــرانِ

لَسْـــنَا نُكفِّـــرُ مُسْلـــمًا بكَبِيـــرةٍ فـــــاللهُ ذو عَـــــفْوٍ وذو غُـــــفرانِ

القحطاني بدأ الأبيات بكلمة ويل، وهي تعني: الهلاك والعذاب ، وقيل: ويل هو وادٍ في جهنم (ابن منظور، ج١٦، مادة ويل)، ويتوعد الشاعر بهذه الكلمة قتلة الحسين بن علي (عليه السلام)، وهي دليلٌ على قُبح فِعْلتهم، وعِظَم جُرمهم، فقد استدرجه بعض البغاة إلى العراق، ثم خذلوه، وتركوه يُقْتَل في كربلاء عام (٦١هـ).

اتخذ الرثاء الحسيني ما بين المشرق والمغرب تجليات وانعكاسات مختلفة، تدور حول إثبات فكرهم ومعتقداتهم، وسوف نحاول الوقوف على مظاهر التشيع في النصوص الشعرية والتي توزعت وفق المحاور.

يُعد شعر الرثاء الحسيني (عليه السلام) من أبرز أشكال التعبير الأدبي في الثقافة الإسلامية، خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين، لعبت هذه الظاهرة دورًا محوريًا في تشكيل الهوية الثقافية والدينية للمجتمعات الإسلامية في المشرق والمغرب.

في المشرق، كانت ظاهرة التشيع لها تأثير عميق على الشعر، إذ عكس العديد من الشعراء مشاعر الفقد تجاه الإمام الحسين (ع) إذ مثّل شعر الرّثاء لآل البيت (ع) لغةً خاصةً، وشكلاً صائتاً مرتبطين بظاهرةٍ إعلامية ملموسة، ويشملان على مظهرين متميّزين؛ المظهر الدّلالي، والمظهر الجمالي، ويعدّ الاعتراف بهذين المظهرين، ودراستهما وتحديد خصائصهما من أُسس الإعلام للتلقّي الجمالي، فإن الشاعر الجيّد يرسل عمله الإبداعي للآخرين، فيعمل قبل ذلك على اختيار الكلمات ذات المدلولات الموحية المعبّرة، وتأليفها بشكلٍ مفهوم، وهو كثيراً ما يعمد إلى خرق قواعد اللّغة وقوانينها لإنجاز اللّذّة الجماليّة عنده أوّلاً ثمّ المتلقّي ثانياً، فيتلاعب بألفاظ اللّغة تقديماً وتأخيراً، وحذفاً، ويعطي المدلولات دلالات تجعلها أكثر إيحاءً وتأثيراً في المتلقّي، ومن الشّعراء الشاعر موفق بن أحمد الخوارزمي (ت. ٥٨٦هـ) أنشأ قصيدةً في رثاء الحسين (عليه السّلام ومما قال فيها (الخوارزمي، ١٤٢٣هـ، ٢/ ١٥٩):

نَعَـــم بادّكـــاري ومـــن بهـــا تفـــاقم كربـــي واســـتحم بلائـــي

وأنـــق عينـــي ماءهـــا ببكائهـــا علـــيهم وقـــد أمـــددتُها بـــدمائي
فيـــأوي قـــومٍ قتَّلـــوهم إذا بـــدا شـــفيعهم مـــن جملـــة الخُصـــماءِ
وســـاقوا بنـــي بنـــت محمّـــدٍ إلـى الشّـامِ فـي السّـوق العفيـف كَشَـاءِ

وشعر رثاء الحسين كان رسالة إعلاميّة نقل للأجيال اللّاحقة الوقائع والأحداث، بكى وأبكى، وخلّد فاجعة كربلاء مدى الدّهر، وبقي يهزّ الضّمير العالمي، من أجل أن يُستلهَم في كل زمان ومكان من تجربة الحسين ما يماثلها عندما يقع الظّلم، ويحل الاستعباد، لقد استلهمت الأجيال من واقعة كربلاء خبرات ومعارف عن الفكر المجاهد والمقاوم، وجعلت من هذه المعركة رمزاً للنضال والجهاد في سبيل إعلاء كلمة الحقّ، فإن حادثة الطّف وما جرى في هذه البقعة الشّريفة من العراق أكثر الوقائع وجعاً، وأشدّها ألماً، وكيف لا؟! وقد وراح ضحيتها سبط رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) مع العشرات من أبنائه وبناته، وأخوته وأخواته، وأتباعه. وقد كان هذا الشّعر الأكثر صدقاً، وتنوّعاً يحمل رسالة إبلاغية مفادها الثّورة من أجل إحقاق الحق، ومقاومة الظّلم، ومناهضة الاستبداد، وهذا البيت يبرز قدرة الشعر على التأثير في النفوس، إذ يُظهر الفخر في الانتماء للإمام الحسين (ع).

أما في المغرب، فقد تأثر الشعراء بالأفكار الشيعية، وخاصة في الأندلس،أمثال أبو العباس الجراوي، شاعر الأندلس الشهير، عبر عن مشاعر مشابهة في قصيدته التي تتناول الفقد والحنين، شعر الجراوي مصدرًا هامًا لفهم المفاهيم الشيعية والروحانية المرتبطة بالإمام الحسين (عليه السلام) إذ يعبر عن تقديره العميق للأئمة الاثني عشر ويصف بطولاتهم وتضحياتهم في سبيل الإسلام، وتتناول قصائده أيضًا حقوق الإمام الحسين والظلم الذي تعرض له، ويدعو إلى العدل والمحبة والولاء له، يعبر أيضاً عن الروحانية والعشق الديني، ويعزز الوعي الشيعي والانتماء له يستمر تأثيره في إلهام الأجيال اللاحقة والحفاظ على قيم وتقاليد الشيعة المرتبطة بأهل البيت (عليهم السلام)، إن دراسة شعر الجراوي والتعرف على أعماله يمكن أن تعزز فهمنا للرثاء لأهل البيت(ع) وتعظيم مكانتهم في الثقافة الشيعية.

الجراوي هنا مع البكاء ذاكرا المكان القفر (ربع للرسالة) وهو مكة شرفها الله موطن مرتع الحسين آنذاك، ومن قبل فهي موطن مبعث الرسالات، وصف الشاعر حال محبي الحسين إذ أن عيونهم باكية ودموعهم منهمرة بحرقة، ويحرص الشاعر على الصورة الحية المتحركة فشبه الدموع وحركتها بحركة الخيول الراكضة ربما لتحقيق هدف أو تعبير عن شدة الحزن والألم.

إذ يقول في ذلك (الجراوي ، ١٩٩١: ١١٧):

أيتـــركُ ربـــعٌ للرســـالةِ سبســـبُ تجـــيءُ بـــه هـــوجُ الريـــاحِ وتـــذهبُ

ولا تنهمي فيه العيونُ وتسكبُ وتظلعُ أعناقَ الذنوب وتنهبُ

والجراوي يعبر عن حزنه وبكائه على أرض ديار الحسين، ويعدها من الناحية العقائدية ديار الهدى، إذ أنها مقدسة نسبيًا لأنها أمها الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم)، ومن قبلها إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام). وتعتبر دار الحسين مكانًا مرتبطًا به.

- تصوير مأساة كربلاء

استطاع الشعراء في المشرق تصوير مأساة كربلاء بشكل حيّ، إذ كان الشّعر الحلّي أكثر أنواع الفنون الأدبيّة ازدهاراً في مدينة الحلّة، فتجلّى فيها بأبهى صورة، وقد أكّد شعراؤها انتماءهم الولائي لآل البيت وفكرهم، فهو هو ذا أميرها بدران بن صدقة بن منصور (ت ٥٣٠ هـ) يقول معلناً مبدأه في موالاة آل البيت، والبراءة من أعدائهم (العماد الأصفهاني، ١٩٨٢، ص٤٣٥):

إنّي من الشّاكرين لكنْ بغير راءٍ فكن ذكيّا
وإنّني مبغضٌ مُعادٍ لكلّ من لم يُردْ (عليّا)
ظللتُ لآلِ النّبيِّ عبداً ومن معاديُهمْ بَريا

بيد أنّ من ينعم النّظر، ويتدبر الفكر في هذا الشّعر، يتنبّه إلى مسألة تخصّصه بالفكر الحسيني، وإيمانه بنهجه، وتكريس نفسه لصالحه، لقد كان الشّعر الحلّي شعراً ولائيّاً بالإطلاق، عبّر عن انتمائه للحسين وقضيته، فتحدّث عن واقعة الطّف مستعرضاً بطولة الحسين، ومن كان برفقته، وصّور مواقفه الإنسانيّة، ومناداته بإقامة الإسلام الحقّ بعيداً عن أفعال يزيد التي فيها من الكفر والطّغيان واستعباد النّاس والاستبداد بحقوقهم الشّيء الكثير، لقد وصل هذا الشّعر إلى مستوى رفيع، يتفاوت فيه الأسلوب والإبداع، والجودة بحسب أحكام العصر الذي ظهر فيه كلّ شاعر، فالشّعر الحلي منذ نشأة مدينة الحلّة مازال مستمرّاً إلى يومنا هذا؛ وبالتّالي أسّس هذا الشّعر مدرسةً للقصيدة الحلّيّة انمازت عن غيرها من المدارس الشّعريّة في الحواضر والمراكز الثّقافية الأخرى؛ وذلك بخصوصيتها الحسينية، وفرادتها في التّشّيع للحسين وأهله، وتبيانها الأسس العقائدية لفكر آل البيت، حتّى عُرفت الحلّة بحاضرة الرّثاء الحسيني، لقد ارتبطت هذه المدينة زماناً ومكاناً بحادثة الطّفّ، وشدّة ارتباطها انعكس على وجه المدينة التي أخذت تعيش الحدث في كلّ وقت، وهذا بدوره انعكس على أشعار شعراء الحلّة الذي تبض بحبّ الحسين حتّى صارت واقعة الطّفّ غرضاً أدبيّاً مستقلّاً عرضت فيه مظلومية آل البيت متجسدة بالحسين ومن كان معه في كربلاء حتى انتقل تأثير ذلك إلى المدن الأخرى، فشارك شعراء الحلّة في هذا الغرض، وصار شعراء من غير الشّيعة يرثون الحسين بأشعار مؤثّرة، ويبكونه، ويعرضون قضيته، وقد استمرّ ذلك في الأدب العربي وغير العربي كالهندي والفارسي إلى يومنا هذا.

في المغرب، نجد أن الشعراء مثل صفوان بن إدريس قد عبروا عن مشاعرهم تجاه الإمام الحسين أيضًا، وإن الحسينيات التي نظمها التجيبي ندب فيها الحسين وأهل البيت(ع)، وتتضمن الكثير من البكاء والرثاء للإمام الحسين (ع) والتعبير عن حزن النبي محمد لو رآه يقتل، إذ يستخدم الشاعر في هذه القصائد التشبيهات بشكل متقن، إذ يصور الإمام الحسين عطشانًا ويستعير صورة الحسام المرهف طلبا للأخذ بثأره، مصورًا ألم النبي محمدا على ما حدث لسبطه، إذ يقول في ذلك: (التجيبي، ١٩٩٩: ١١٦)

انـــدُبِ الطّـــفَّ وَسِـــبطَ المُصـــطَفَى ... بِمـــرَاثٍ هِـــيَ أَســـرَى مِـــن قفَـــا
لا تَـــرُم ضَـــوءَ هُـــدىً مِـــن بَعـــدِهِ ... فَسِـــرَاجُ الهَـــدي بـــالطّفِّ انطَفَـــى
أُمـــةَ الطّغيـــانِ مَـــا أَجـــرأَكُم ... مـــا أَقَـــلَّ البِـــرّ فِـــيكُم وَالوَفَـــا
لَـــو رَآهُ جـــدّهُ بَيـــنَكُم ظَامـــئاً ... يُســـقَى الحُســـامَ المُرهَفَـــا
لانطَـــوَى فَـــوقَ يَدَيـــهِ أَلَمـــاً ... وَتَـــوَلّى قَـــائِلاً وَا أَسَـــفَا

وفي مراثي التجيبي التي تنشد في الحسينيات، يبدأ الشاعر بإرسال التحية والسلام إلى الإمام الحسين، إذ يصفه بالذي يفوح منه الأرج والعطر كالنسيم العليل، ويُرسل سلامه إلى "منزل الحسين"، وهنا يُقصد به قبره الشريف ومن ثم ينسب الشاعر الحسين إلى أمه فاطمة الزهراء (ع)، ليعبر عن القرابة العظيمة بينهما، ويبين في بعض المواضع أن مصرع الفاطميين أدى إلى غياب النجوم والبدور، معبرًا عن الحزن العميق والحداد الذي ساد بعد رحيل الإمام الحسين (ع)، وهذا يعكس حجم الألم والفاجعة ومن ثم يبكي الشاعر يوم كربلاء، الذي تخلّى فيه الطامعون في الدنيا عن الإمام (ع)، وبقيت الأحزان تطاردهم في كل مرة يحيون فيها ليلة مقتله

هذه الأبيات تعكس الرغبة في التضحية والرثاء لأهل البيت، مما يظهر عمق المشاعر المماثلة بين الشعراء في المشرق والمغرب.

- عوامل نفسية

تتسم مراثي الشعراء في المشرق والمغرب بتداخل الأفكار والمعاني، حيث يهيمن الحزن والألم على القصائد، في كلا المنطقتين، استخدم الشعراء العاطفة كوسيلة للتعبير عن تجاربهم الشخصية في مواجهة الفاجعة، إذ أن الجراوي يستند إلى التراث المشرقي ويستخدمه كمصدر إلهام له، إذ يشير الدكتور عبد اللطيف يوسف عيسى إلى أن الشاعر الأندلسي ينظر إلى التراث المشرقي بحب وإعجاب، ويسعى لالتقاط الصور والأفكار من إنتاج الثقافة الشرقية ليدخلها في قصائده إذ يعبر ذلك عن حبه وإعجابه والولاء لأدب المشرق، ونجد أن قصائده نادرًا ما تخلو من

استشهاده بآيات من القرآن الكريم، سواء لفظًا أو معنى، أو من أحاديث الرسول(ص)، مما يظهر تأثره بالمصادر الإسلامية. (عيسى، ٢٠١٣: ١٥٠)

وقال الجراوي في ذلك: (الجراوي، ١٩٩١: ١١٨)

عــذيريَ مــن رزءٍ بصــبريَ يعبــثُ ومِــن شــانيء فــي عقــدةِ الصــبرِ ينفــثُ

وأيّ مصــابٍ عهــدُهُ لــيسَ يــنكثُ كأنــي إذا مــا القــومُ عنــهُ تحــدثُوا

ويعبر الجراوي في هذه الأبيات عن تعجبه واستغرابه من هذا المصاب العظيم، وهو استشهاد الإمام الحسين (عليه السلام)، الذي يبقى محور اهتمامه وتأثيره يعتري الشاعر بشكل دائم. يظل الشاعر أسيرًا لهذا المصاب، حتى إذا تذكره وذكره أمام الناس، تنهمر دموعه وتتغلب عليه المشاعر بشكل يشبه حالة من يشم رائحة الحنظل، وهي حارة ومعروفة بأنها تسبب الدموع، يتعبّر الشاعر بذلك عن أن هذا المصاب يثير فيه مشاعر قوية وعميقة تجعله يبكي ويتأثر بشدة في حضور الناس.

ونجد أشعار ابن هانئ الأندلسي في المغرب لم تكن من أجل البكاء على مصاب الائمة فقط، وإنما طلباً للثأر من قتلتهم وبالأخص ثأر الإمام الحسين (ع)، قائلًا: (الأزدي،١٩٩٨: ٢٤٦)

بنــي هاشــمْ قــدْ أنجــزَ اللهُ وعــدهُ وأطلــعَ فــيكمْ شمســهُ وهــيَ دالــكَ

ونــادتْ بثــاراتْ الحســينْ كتائــبَ تمطــى شــراعا فــي قناهــا المعــاركُ

يشير إلى أن الله قد أظهر بركاته ونعمته في بني هاشم، ويعتبر ذلك دليلاً على النصر والتميز الذي حققه بنو هاشم، إذ يذكر الشاعر أن كتائب عدّة نادت بالثأر، ويشير ذلك إلى وجود قوة وجماعة من المؤمنين الملتزمين بثأر الحسين بن علي (ع) يتجسد هذا الاجتماع في قوة شاملة تنتشر في ساحات المعارك، ويتم تمثيل القوة والإصرار لتلك الكتائب.

فالرثاء تجلى بوضوح في شعر ابن هانئ معتمدا على التصريح تارة، والتضمين في الأشعار تارة أخرى، إذ عدّه الشاعر من أساسيات الحياة الدينية وفق مذهبه، بل هو عمود الدين وقواعده، وهو جوهر العقيدة، وأساس المذهب الديانة الشيعية الإسماعيلية، إذ لا يمكن الإيمان به إلا بالاعتقاد بـهِ، وكثير من المعتقدات الأخرى تقوم عليه، فالتولي من أهم صفات المحب عند الشيعة الإسماعيلية وطاعة الإمام من طاعة الله، وقد ميز الإسماعيلية الائمة بميزات لم تميز بها بقية المذاهب الشيعية، فإن لإمام عندهم يتبوأ مرتبة سامية في الحياة الاسلامية، والتي صورها الشاعر لنا في مواضع مختلفة.

-الروابط الثقافية والدينية

تُمثل هذه القصائد رموزًا للولاء والانتماء، مما يعكس العلاقة العميقة بين المسلمين وآل البيت، من خلال دراسة شعر الرثاء، نرى كيف ساهمت هذه النصوص في تشكيل الهوية الثقافية والدينية للأمة الإسلامية، وكيف استمرت تأثيراتها عبر العصور.

الخاتمة:

يتضح أن شعر الرثاء لآل البيت (عليهم السلام) في القرنين الخامس والسادس الهجريين، يمثل تجسيدًا عميقًا للارتباط الروحي والثقافي بين المشرق والمغرب، وقد ساهمت عناصر الأدب الخمسة، وهي العاطفة والخيال والمعنى والموسيقى والأسلوب، في تشكيل هذا الأدب الفريد، إذ تعكس العواطف الصادقة تجارب الشعراء ومشاعرهم الجيّاشة تجاه الفقد، الخيال، كقوة خلاقة، منح الشعراء القدرة على تصوير مشاعرهم بطرق مبتكرة، مما أضفى على نصوصهم رونقًا وجمالًا متميزين، لقد تجلت في قصائدهم قدرة على تحويل الألم إلى صور شعرية غنية، تجمع بين الواقع والخيال، وتخلق حالة من الانسجام بين مختلف العناصر.

وبذلك، لم يكن شعر الرثاء مجرد تعبير عن الحزن، بل أصبح رمزًا للوفاء والولاء، معبرًا عن قيم عميقة تشد الأجيال نحو تاريخهم وتراثهم الثقافي. إن هذا النوع من الشعر يظل حيًا في الذاكرة الجماعية، مستمرًا في التأثير على الوجدان الإنساني، ومذكرًا بأهمية العاطفة والفن في نقل التجارب الإنسانية.

النتائج:

١- تمكّن شعراء المشرق والمغرب في تلك الفترة من إدماج الفكر الشيعي في نتاجاتهم الأدبية، مما ساهم في تشكيل هوية ثقافية جديدة تعكس التوجهات الدينية والسياسية في تلك الفترة.

٢- نجح الشعراء في تجسيد فاجعة كربلاء من خلال استخدام صور شعرية مؤثرة، مما جعل الحدث التاريخي حاضرًا في الذاكرة الجمعية للأمة.

٣- أظهرت المراثي مشاعر عميقة من الحزن والأسى، مما يعكس تأثير كربلاء على النفوس المؤمنة ويعزز الإيمان بالقيم التي يمثلها الإمام الحسين (عليه السلام).

٤- اعتمد الشعراء على مجموعة متنوعة من الأساليب البلاغية مثل الاستعارة والتشبيه، مما ساهم في إثراء النصوص الشعرية وجعلها أكثر تأثيرًا.

٥- لوحظ تآزر بين الشكل الفني للقصائد ومضمونها، إذ كانت الأشكال الشعرية تعكس عمق المعاني والأفكار المرتبطة بالمأساة.

٦- ساهمت قصائد الرثاء في حفظ ذكرى الإمام الحسين (عليه السلام) وتعزيز الوعي التاريخي حول أحداث كربلاء، مما جعلها جزءًا من التراث الأدبي والديني.

٧- أثرت مراثي الإمام الحسين في الشعر الأندلسي على الأجيال اللاحقة، إذ شكلت مصدر إلهام للعديد من الشعراء فيما بعد.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

-ابن دراج القسطلي، ديوان ابن دراج القسطلي، تحقيق: محمود علي مكي، منشورات المكتب الإسلامي بدمشق، ط١، ١٣٨١هـ - ١٩٦١م.

-ابن منظور جمال الدين، لسان العرب، رتبه على حروف الهجاء حسب أوائل الكلمات: عبد الله علي الكبير ومحمد احمد حسب الله، وهاشم محمد الشّاذلي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١م.

-السعدي، عيسى إبراهيم، نظرية أبي عثمان بن بحر الجاحظ، دار المعتز، عمان، الأردن، ط١، ٢٠٠٦م.

-شبر ، العلامة جواد، أدب الطف (أو شعراء الحسين عليه السلام) من القرن الأول الهجري حتى القرن الرابع عشر، دار المرتضى، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.

-ضيف، شوقي، الرثاء، دار المعارف، مصر، ١٩٩٥م.

-ابن فارس القزويني، أحمد، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩م.

-الجرواي، أبو العباس أحمد بن عبد السلام، (١٩٩١م) ،ديوان الجراوي، تحقيق: علي إبراهيم كردي ، دمشق: دار سعد الدين.

-الأزدي، ابن هانئ الأندلسيّ، (١٩٩٨م) ديوان ابن هانىء، شرحه الدكتور عمر فاروق الطباع، بيروت: دار الأرقم الطبعة الأولى.

-القحطاني، عبد الله بن محمد الأندلسي أبو محمد، (١٩٨٩م) نونية القحطاني تحقيق : محمد بن أحمد سيد أحمد، مكتبة السوادي للتوزيع.

-الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، انتشارات أسوة، قم - إيران، ط١، ١٤١٤هـ.

-الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ط٤، ١٤١٥هـ -١٩٩٤م. ١٩٨٢م.

Sources and References:

The Holy Quran

-Ibn Daraj Al-Qastali, Diwan Ibn Daraj Al-Qastali, edited by: Mahmoud Ali Makki, Publications of the Islamic Office in Damascus, 1st ed., 1381 AH – 1961 AD.

-Al-Saadi, Issa Ibrahim, The Theory of Abu Uthman bin Bahr Al-Jahiz, Dar Al-Mu'tazz, Amman, Jordan, 1st ed., 2006 AD.

-Shabr, Al-Allama Jawad, Literature of Al-Taf (or the Poets of Al-Hussein, peace be upon him) from the First Century AH to the Fourteenth Century AH, Dar Al-Murtada, 1409 AH – 1988 AD.

-Daif, Shawqi, Elegy, Dar Al-Maaref, Egypt, 1995 AD.

-Ibn FarisAl-Qazwini,Ahmad, Language Standards, edited by: Abdul Salam Muhammad Harun, Dar Al-Fikr, Beirut, 1979 AD.
- Al-Jarawi, Abu Al-Abbas Ahmad bin Abdul Salam, (1991 AD), Diwan Al-Jarawi, edited by: Ali Ibrahim Kurdi, Damascus: Dar Saad Al-Din .
-Al-Azdi, Ibn Hani Al-Andalusi, (1998 AD), Diwan Ibn Hani, explained by Dr. Omar Farouk Al-Tabbaa, Beirut: Dar Al-Arqam, first edition .
-Al-Qahtani, Abdullah bin Muhammad Al-Andalusi Abu Muhammad, (1989 AD), Nuniyah Al-Qahtani, edited by: Muhammad bin Ahmad Sayyid Ahmad, Al-Sawadi Library for Distribution .
-Al-Farahidi, Al-Khalil bin Ahmad, Kitab Al-Ain, edited by: Mahdi Al-Makhzoumi and Ibrahim Al-Samarrai, Aswa Publications, Qom – Iran, 1st ed., 1414 AH .
- Al-Fayruzabadi, Majd Al-Din Muhammad bin Yaqoub, Al-Qamus Al-Muhit, Al-Risala Foundation, Beirut – Lebanon, 4th ed., 1415 AH – 1994 AD .
١٩٨٢AD .
- Ibn Manzur Jamal al-Din, Lisan al-Arab, arranged alphabetically according to the beginnings of the words: Abdullah Ali al-Kabir, Muhammad Ahmad Hasab Allah, and Hashim Muhammad al-Shadhili, Dar al-Maarif, Cairo, 1981 AD.